الغزو الثقافي في الوطن العربي
وخلف ادوات المقاومة .

الياس مرقص

الانسان هو الانسان الصانع والعاقل ، الفاعل والعارف ، انسان العمل والوعي والاجتماع والانتاج ، انسان الحضارة والثقافة ، ولنقل بمطلع خلدوني : انسان العمران .

كل البشر الحاليين ينتمون إلى نوع بشري واحد ، يدعى « الانسان العاقل » يملك ، منذ ظهوره ، خصائص نفسية واحدة وامكانات ذهنية واحدة . وما التاريخ ، سوى بسط متنوع لهذه الخصائص وهذه الامكانات . فالبشر منذ أقدم الأزمنة ، جماعات مختلفة تعيش في مناطق مختلفة ، تحت سماوات مختلفة ، تتكلم لغات مختلفة ، وتدخل فيما بينها في تبادلات مختلفة .

غير أن هذا الاختلاف في الزمان ـ تقدم ، وأيضاً تقهقر ـ وهذا الاختلاف في المكان ـ قبائل وشعوب وقوميات مختلفة ـ لا يجوز أن يحجب الهوية الانسانية . اجل ، وان ادراك هذه الهوية الواحدة المساواتية يفترض درجة عالية من التجريد ، لكن هذا التجريد للكلية انما يحمله الاختلاف والتنوع ، ولا يقوم علم حقيقي بدون ذلك . فلا علم الا بالكليات كما يقول الاقدمون ، وغني عن التذكير بأن هذا المستوى المساواتي مؤيد وباصرار في الدين التوحيدي :

البشرية ذرية آدم ، هذا ما رفضه هتلر ، مثلاً ، النازية ، المذهب العرقي ، ان حرب النازية ضد الدين التوحيدي يجب أن تفهم ، ويجب أن توعى ابعادها ، هذه قضية راهنة . « خصائص نفسية واحدة » ، أقصد ، على سبيل المثال ، اننا نخطىء خطأ قاتلاً ، وقاتلاً لأنفسنا أولاً ، اذا ما تصورنا ان الشر أو القهر أو الاستغلال أو الانانية أو الوثنية وغير ذلك من الشرور وقف على غيرنا ، على جميع البشر فيما عدانا ، أو على الغرب حصراً . «ان النفس لأمارة بالسوء » وليس احد من طينة أخرى .

الدنيا ليست الجنة ، التاريخ ليس فردوساً ، التاريخ دراما ومأساة ، فيه دائماً وجه من دراما ومن مأساة ، حسبه أن يكون تقدماً ، لم يكن كذلك دائماً . والتقدم يستحق دائماً أن ينقد ، ان يمثل أمام محكمة الوجدان والوعي . يمكن ويجب أن تعمل البشرية من اجل تاريخ وتقدم من نوع جديد ، أي أقل مأساوية ، بدون دعوى فردوسية على الأرض . يمكن للشعوب أن تقاتل من اجل غد أفضل بدون أن يكون الجنة ، وبدون أن يقال لها انه الجنة .

- ٢ -

الجماعات البشرية المختلفة في تبادل دائم

إن ظاهرة النقل أو الانتقال قديمة قدم التاريخ وما قبله . لولاها يكون التقدم الحاصل فعلياً غير مفهوم . واقعياً ، ان التطور الذي حققته البشرية خلال عشرة آلاف سنة ونيف ، لم يتم بآلية فعل وردّ فعل بين أدوات انتاج وعلاقات انتاج وبين فوقية في اطار مجتمع مجرد ، معزول ، وهمي ، بل أيضاً وبالضبط بفضل العلاقات الأممية ، اقصد العالمية ، أي العلاقات بين قبائل وشعوب ، بين مناطق صغيرة وكبيرة مختلفة في الدنيا المسكونة .

هكذا فالثورة النيوليتية وقعت في بلاد الشام بفضل التقاء روافد متنوعة نشأت في المنطقة أو أتت من الجوار القريب أو البعيد ، ثم انطلقت منها إلى شتى مناطق العالم القديم ، عالم القارات الثلاث ، كذلك الحضارات النهرية الكبرى وعصر البرونز . والحديد والحصان حملتهما إلى الشرق الأدنى شعوب وافدة ، وبعد ذلك ، يصير البحر الأبيض المتوسط بؤرة عالية التوتر . هناك الاستعمار الفينيقي ، الاستعمار اليوناني ، الفتح الاسكندري ، الحضارة الهلينسْتية ، الامبراطورية الرومانية ، الرق والتجارة ، المسيحية ، الاسلام والفتوحات العربية .

بوجه الاجمال ، ليس التاريخ فقط بل أيضاً ما قبل التاريخ ، ابتداء من نقطة ما ، انما تملؤه عمليات النقل ، الانتقال ، الهجرة ، والتبادل بشتى المعاني .

إن مذهب الجواهر يجب أن يدان ، كل الجواهر نسبية في منطق هيغل ، فكرة الجوهر الصحيحة خاضعة لفكرة العلاقة . إن هوية الأشياء ليست جوهراً ماهوياً . بالأحرى هوية الثقافات ، الحضارات ، الشعوب ، الأمم .

تعدد ثقافات ، اجل ، لكن لعل الافضل أن نقول : ثقافة متعددة .

- ٣ -

لقد تكونت الثقافة العربية الاسلامية في العصور الوسطى بالأخذ ، أخذت ، بروح مبدئية وبتصميم ، عن ثقافات سبقتها في المنطقة وخارجها ، وكانت ثقافة أصيلة ، كليةأي كونية ، وذات ديمومة .

قبلها ، تكونت الثقافة اليونانية بالأخذ ، أخذت المواد من الشرق الأدنى القديم ، وصنعت بهذه المواد شكلاً جديداً ، انتقل في وقت لاحق إلى أوروبا وقبلها إلى العرب أيضاً . هذا ما يسمى « بالمعجزة اليونانية » .

هناك ، « معجزة عربية » . . . كان العرب أسياداً ومنتصرين ، كان لهم هوية ، ولم يكن عندهم عقدة هوية . اخذوا موارد من اليونان ومن الشرق . وشكلوا ثقافة كبيرة جداً . ليس فقط تقنيات انتاج وطرق حياة ، بل فلسفة وعلوم وفنون وآداب . إن سلسلة من الفلاسفة ـ العلماء العرب دخلوا كرافد كبير في نهوض أوروبا الحديثة بدأ في أواسط العصور الوسطى . لقد بسط العرب العقل ، اكتشفوه واخترعوه في العالم ، أنموا العقل الانساني ، ثم ، في ظروف تاريخية معينة ومتلاقية ، خرجوا من مسار التقدم . لكن الثقافة العربية هي الثقافة العربية ، ابنة هذه المنطقة ، وهي مرتبطة بها ، وهي ثقافتنا لها خصوصية ، بل أقول : لها مفردية ، لكن المفردية هي حاصل جمع كليات ، ليست الثقافة العربية هي نوع ، والثقافة الانسانية هي نوع آخر . ولا أعتقد أن الثقافة العربية الاسلامية أقرب إلى الثقافة الهندية ، أو الصينية ، منها إلى الثقافة الأوروبية ، وليس من الصحيح أن نعتبر اننا نحن الشرق ازاء الغرب . هناك شرق آخر ، كبير وعظيم واكبر منا بكثير ، ما يجمعنا معه في شرق واحد ازاء الغرب هو العصر الحديث ، الاستعمار ، النظام الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي نتج عنه .

- ٤ -

يمكن القول أن الاستعمار بالمعنى الأصلي والحرفي للكلمة هو العمران . بهذا المعنى ، التاريخ كله هو استعمار . وهذا المعنى راهن ، ثمة الآن زحف من الصحراء على الأرض المزروعة والمعمورة في بعض أقطار الوطن العربي،وثمة امتصاص للأرياف في العواصم والمدنالمتضخمنة الاستعمار العربي لأرض الوطن متراجع في الآونة الأخيرة .

غير أن فكرة الاستعمار في تاريخ النوع البشري لم تكن فقط هي استعمار البشر للأرض ، بل استعمار البشر للبشر أيضاً .

والاستعمار الأوروبي الحديث حقبة جديدة نوعياً في تاريخ البشرية ، كان عدواناً واسعاً شاملاً ، ومن طرف واحد . النظام الرأسمالي البادىء في القرن السادس عشر بعث الرق ، اباد الملايين من الهنود الحمر ومن الزنوج الافريقيين ، ثم ، في وقت لاحق ، بشكل خاص في عصر الرأسمالية الصناعية ثم الاحتكارية والمالية ، استطاع الاستعمار متمثلاً بدول معينة عديدة ، معظمها أوروبية ، مضافاً اليها الولايات المتحدة واليابان ، أن يفرض تسلطه على ثلاث قارات ، ان يسخّر خيراتها لصالحه ولتصوراته وأهدافه ، أن يغير بناها ، وان يدخلها في تاريخ جديد ، عالمي ، يكون هو مركزه وذاته وصانعه وتكون هي موضوعه ومادته .

ولقد ناضلت الشعوب المستعمرة نضالاً طويلاً وشاقاً ضد الاستعمار ، وأسفر هذا النضال أخيراً عن جلاء قوات الاحتلال الأجنبي ، وانتزاع الاستقلال الوطني ، ودخول جميع البلدان المستعمَرة سابقاً إلى منظمة الأمم المتحدة .

من جهة ، باتت كل الاقطار دولاً مستقلة ، من جهة أخرى ، ثمة انطباع بأن الأمر ليس كذلك ، عملياً ، التبعية باقية .

شروط التبادل مجحفة ، النفط العربي يغذي تقدم الغرب ، وانتاج هذا النفط ينمو بوتيرة مذهلة ، لا سيما منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى الآن ، وذلك رغم التوسع الاسرائيلي وارتباط اسرائيل بالولايات المتحدة وبالغرب ، العالم العربي يعاني أزمة متنوعة ، ثمة في معظم المجتمعات العربية ، عملية إغناء وإفقار لم يكن احد منا يتوقعها قبل خمسة عشر عاماً ، لعل نصف سكان الوطن العربي هم على حافة الجوع ، الاقطار العربية تفقد الاستقلال الغذائي ، ثمة تراجع للحريات الديمقراطية ، ثمة نوع من حرب أهلية كامنة أو فعلية داخل الأمة العربية ، الوحدة العربية في تراجع ، ثمة نزيف بشري

كبير ، هجرة عربية الى أوروبا الغربية بشكل خاص .

تجري الأمور أمامنا وكأن العالم الاستعماري أو الاستعماري سابقاً يجني فوائد من العرب ، وبترول العرب ، لكن من العرب بشكل خاص ، لم يكن يجنيها حين كانت له جيوش غزو واحتلال تقاتل في بلادنا ضد المناضلين الوطنيين وضد الشعوب ، وحين كان بالتالي يضحي بشباب من أممه من اجل الاستغلال والهيمنة .

إذ ان هناك فرقاً لا يمكن محوه بين الحالة الحاضرة والحالة قبل ربع قرن أو نصف قرن : في الوقت الحاضر لا يوجد على أرضيتنا وفوق شعوبنا جحافل أو جيوش فرنسية ، انكليزية ، ايطالية ، كما كان الحال قبل حين من الزمن ، ولا أمريكية . ومع ذلك هناك تبعية رغم الاستقلال . هل يجب أن نسميها تبعية طوعية ؟ أم نسميها تبعية بالوساطة ؟ هل بنينا الاستقلال ، تقرير المصير ، المستقبل ؟ هل أدركنا أن الاستقلال بناء للمجتمع ؟

الفقر لم يكن أكبر ، ولا فيض الثروة والرشوة والفساد . كذلك القهر الانساني ، وكذلك التجزؤ العربي . لا يوجد أمن قومي عربي مع أن المشروع الصهيوني يتقدم عاماً بعد عام ومع أن الشعب الفلسطيني يعلن رفضه ، يثبت وجوده وحضوره الفعلي وكيانه كشعب .

لئن كنت أطرح هذه الأمور ، فلأنه في اعتقادي لا يجوز أن تكون مقاومة الغزو الثقافي مهرباً وتعويضاً عاجزاً عن حقائق سياسية وتاريخية تنتصب امامنا كالجبال .

لا مقاومة لغزو ثقافي اجنبي ولا حفظ أو بناء لهوية ثقافية قومية إذا كان عشرات الملايين من العرب يعيشون ليومهم ، لا يعرفون غدهم ، ولا يسيطرون على شيء من مصيرهم . حين يزحف البشر على بطونهم ، فهم ليسوا بحاجة الى أية ثقافة لا غازية ولا أصيلة .

باختصار ، ان ما يجابهنا بالتلازم هو : افقار الجماهير الواسعة ، تراجع الديمقراطية وفكرة الدولة كدولة حق وقانون ، تراجع الوحدة العربية أو تراجع الأمة العربية ككيان حقيقي ، كاستقلال ومستقبل . اذا استمرت هذه الحال ، تكون قضية الهوية الثقافية العربية ، كمشروع عمل ، معلقة في الهواء .

بتعبير آخر : إن قضية الغزو الثقافي تأخذ مكانها في اطار تاريخي وسياسي راهن ومحدد .

ما الذي يغزونا فعلاً في الوقت الحاضر ؟

الذي يغزونا ليس ديكارت ولا ارسطو وفرنسيس بيكن أو هيغل . ولا أعتقد أن هؤلاء يؤلفون عالماً فكرياً بذاته ، وان المعري والحسن بن الهيثم وابن رشد وابن خلدون والخوارزمي يؤلفون عالماً فكرياً آخر .

الذي يغزونا هو الويسكي والسيارات وأفلام الفيديو الخلاعية . هذه قضية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

الذي يغزونا هو عالم حضاري حديث جداً في الغرب نفسه .

الذي يغزونا هو مجتمع الاستهلاك والانحلال أو التغرب . ثمة فرق كبير بين الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين وأوروبا في عصر صعودها الاساسي . . والتغرب ليس مفهوماً تابعاً للغرب بل للغربة . حضارة السيادة في الغرب في ربع القرن الأخير تابعة لانتاج النفط ، وبالتالي والى حد لا بأس به ، للأوضاع العربية وانتكاس المشروع العربي القومي الشامل . الذي يغزونا هو تذرر المجتمع ، ضياع الانسان كجملة علاقات اجتماعية .

بشكل رئيسي ، ان الاجتياح الثقافي أو الحضاري الذي يأخذنا تابع لنظام اجتماعي - اقتصادي - سياسي تكوّن ويتكوّن عندنا بخطى سريعة . من المحال مقاومته جدياً بدون تغيير النظام .

الذي يتراجع هو ، في المقام الأول ، فكرة العمل أو الشغل ، كينونة الانسان الاساسية . وبالتالي ، مع فكرة العمل ، فكرة التعامل ، الاجتماع ، فكرة الوعي والوجدان والاخلاق والحق ، فكرة الانسان والمواطن . اقصد انها تتراجع في الواقع وفي الفكر . فهي مقولات والمقولات تعبير عن علاقات كينونية . وهي تتراجع . مفهوم القيمة ، المفهوم المساواتي ، الهوية الكبيرة ، يتراجع .

النظام الرأسمالي العالمي يشهد ، في الآونة الأخيرة ، في مرحلته الأكثر تقدماً ، تباعداً كبيراً ومتزايداً بين العمل والكسب . الوطن العربي يضاعف هذه الحالة العامة ، ان الشعور العام باستفحال اللاعدل شعور مطابق للواقع .

من الخطأ الاعتقاد بأنه من الممكن وقف الغزو الثقافي أو الحضاري بدون تغيير النظام القائم من أساسه ، بدون تغيير المسيرة العربية الأخيرة ، بدون رجوع قضية العرب الكبرى ،

التي حملناها قبل ربع قرن . ليس ثمة مشروع عربي مستقبلي اذا لم يكن في أساسه مفهوم العمل والاجتماع الانساني . بدون ذلك ، الاشتراكية نفسها تكون غطاء لشيء آخر ، معاكس ، وتنتكس الروح العربية كلها الى المركانتيلية والوثنية . وقد يلبس هذا الانتكاس كله لباس الاصالة أيضاً :

ينبغي أن نجيب على سؤال : هل نحن مؤمنون بتاريخ العالم ، بمصير عالمي للانسان اليوم أم لا ؟ هل نحن نريد ، كعرب ، رجوعاً إلى ماض قومي خاص بنا ، أم نريد ، كعرب ، مشاركة مستقلة وجادة في حسم حاضر عالمي احتمالي ومتفارق ؟

إن احوال العالم اليوم ـ وليس فقط احوال العرب ـ ليست بخير . تاريخ البشرية واصل الآن إلى نهاية . إما ان تكون نهاية نظام بالكامل ، أو أن تكون نهاية النوع نفسه . الثورة المطلوبة هي أهم انعطاف في تاريخ النوع منذ ظهوره . أقول « ثورة » ، و « الثورة » أكبر من « الاصلاح » ، بطبيعة الحال ، لكنها أكبر بكثير من « انتفاضة » من « اشتعال ثوري » . انها جهد طويل جداً . هل نعتبر انفسنا خارج هذه القضية ؟ هل نعود إلى سلف صالح ، الى مجد قومي ، الى تراث نؤسطره ، عودة مستحيلة عدا ذلك ؟ أم نعود ، في الروح والوعي ، الى مبدأ الانسان وعالمه من اجل مشروع ومستقبلي ؟ ألسنا جزءاً من البشرية ، اليست البشرية جزءاً من تضمّننا ، بل أول تعيّناتنا ؟ قبل عشرين سنة ، كان عبد الناصر لا يرفع فقط ألوية الوحدة الوطنية والوحدة القومية واستقلال الشعوب ، بل أيضاً لواء السلام العالمي والانفراج الدولي .

هل نحن نعتبر الانطواء على الذات رداً ناجعاً على غزو ثقافي ؟ أم نؤمن بأن العالم معقول أي موصول وان الضروري والممكن أن نتملك هذا العالم بالروح ، وعياً وعملاً ؟

- ٦ -

في الواقع ، اننا لم نتملك هذا العالم ، بل ان هذا العالم في وجهه السلبي هو الذي يتملكنا .

ليس فقط أشياء الاستهلاك الغازية التي ذكرت بعض نماذجها الشهيرة ، بل أيضاً الأفكار والثقافة بالمعنى العالي ، ميدان العلوم والآداب والفنون .

لقد ترجمنا مئات أو آلاف الكتب في الآونة الأخيرة ، نقلنا مئات الأفكار ، تكلمنا عن احدث العلوم والبحوث العلمية ، حاولنا اللحاق بمسيرة التقدم المفهومة كمسيرة على خط يتقدم إلى ما لا نهاية . هذه اللانهاية ، حسب هيغل وماركس ، هي اللانهاية السيئة ، الخط المستقيم المتتالي أو لنقل : إنها المحال والعبث . انتقلنا باسم الأحدث ، من موضة إلى موضة : الوجودية ، الماركسية ، ماركسية آخر طراز ، البنيوية ، الانتروبولوجيا الثقافية الخ . المفقود هو الاساس ، والمفقود هو الروح النقدية ، والمفقود هو المشروع القومي والانساني ، القضية الحقيقية .

إن الفكر العربي اليوم ، في معظمه ، مفتقد بآن معاً إلى الفلسفة والى الشعب والى الواقعية . وهو لا يعي ان هذه النقاط الثلاث هي ثلاثة وجوه لموقف واحد . وهذا الموقف الواحد هو أحد أهم وجوه الغزو الثقافي الغربي الأحدث ، سواء أريد لهذا الموقف أن يتراكب مع موقف تقليدي وماضوي وان يمده ببعض المعطيات « العلمية » أو « العلموية » أو أريد له أن يكون رداً على الماضوية والسلفية وما شابه ، ان قسماً من الفكر العربي الحالي يقيم وثنية أصالة ، وقسماً يقيم وثنية حداثة . كلاهما وثنية ، وكلاهما نفي للانسان .

إن الرد على الغزو الثقافي الغربي والصهيوني يتطلب من جانب الفكر العربي موقفاً كلياً من الانسان وتاريخه ومصائره . هذا الموقف الكلي الاساسي هو البديل الحقيقي عن فكرة اللحاق بالغرب ، وعن فكرة تمثل آخر منجزات التقدم . هناك تقدم وتقدم . هناك تقدّم الى الهاوية .

ما نحتاج فعلاً إلى تمثله هو تاريخ الانسان والثقافة الانسانية . هذا التاريخ ليس « آخر منجزات الغرب » .

وان تمثل الجوانب أو العناصر الايجابية في آخر منجزات الغرب يرتكز على الوعي الاساسي الآنف . إن تمثل افلاطون وأرسطو والربيين والرواقيين وأوروبا القرن الثالث عشر والسادس عشر والثامن عشر ، أهم بالنسبة لنا وللبشرية عموماً من السعي الى آخر ابتكارات وفنون العلم الغربي .

وما نحتاج فعلاً إلى تمثله هو تاريخ وطننا وفكرنا وثقافتنا . هذا التاريخ الوطني قديم ، وله من البداية ابعاد كلية ، كونية .

١ ـ على سبيل المثال ، كما ذكرت آنفاً ، ان بلاد الشام وما حولها كانت هي بؤرة الثورة النيولوتية : هنا ، الانسان انتقل من الصيد والأخذ والاتلاف إلى الرعاية والزراعة والمكاثرة ، فصل المنفعة الى مباشرة وغير مباشرة ، فصل فكرة الواقع إلى مباشر وغير مباشر ، هنا جرّد وتجرّد ، استوعى وتوجدن ، عقل وحسب وهندس وجبر . . . غير أن هذا الأمر الخطير الأهمية ابعاده الكلية والراهنة خارج التعليم والثقافة العامة .

٢ ـ كذلك قضية الدين التوحيدي وموقعه في التاريخ

الانساني وراهنيته والخيارات التي يطرحها في المستوى الروحي والثقافي اليوم ، فهي ليست موضع فهم أو اعتبار . كثيرون يرفعون لواء الدين التوحيدي ، كغطاء لطوطمية اجتماعية ثقافية ، لعرقية مذهبية أو دينية ، لمشروع سياسي حزبي ، اقصد حكومي أو حكومي ـ مضاد .

٣ ـ والتاريخ القومي كله صار موضوعاً لتبرير وتمجيد ودفاع وهجوم متنوع .

٤ ـ المفكرون الكبار في تاريخنا ، من فلاسفة وعلماء وأدباء ، لا يسهمون في تكوين وعينا الراهن ، وعلى هذا ، يجب أن لا نلوم سوى أنفسنا ، وليس التراث نفسه من جهة ولا الغرب من جهة أخرى .

إن مقاومة الغزو الثقافي والاستلاب الروحي تتطلب بعثاً صحيحاً وموضوعياً للتراث الفكري العربي ، من اجل المثقفين ومن اجل الشعب عامة . من العبث أن نرتد على أوروبا الحديثة وان ندعي في الوقت نفسه أن فلاناً أو فلاناً أو فلاناً من أعلام العرب القدامى سبقوا الأوروبيين . هذا الموقف خاطىء في شطرية ، وغير مقنع . هناك دائماً من يسبق السابق . هناك دائماً بداية قبل البداية . كل شيء مهم في التاريخ بدايات ، يُخترع عدة مرات . اذا حللنا الواقع الى عناصر ، الى مادة ، عندئذ يجب القول إنه ليس هناك جديد في التاريخ وليس هناك تاريخ .

المقنع هو أن نبين البذور الكونية الايجابية في تراثنا الماضي وانها بذور لم تنبسط أكثر الى الامام عندنا ، نظراً لانتكاس تاريخنا العربي المستقل ولانطوائنا المتواقت مع انعطاف كبير جداً في تاريخ الانسان ، تحقق في أوروبا ، وسدّ علينا باشكال مختلفة .

التاريخ كله تناقض . والاستقلال ليس رد فعل . لن نبني هوية ثقافية عربية بما قد يتصور البعض أنه رد شامل على الغرب . الذي أسميه الغرب هو مرحلة بل لحظة بالمعنى الفلسفي ، المنطقي التاريخي ، وليس الزمني التعاقبي المجرد والطيراني ، لحظة هامة جداً ، راهنة جداً ، وازدواجية بطبيعة الحال ، في تاريخ البشرية . والثقافة العربية التاريخية الكبرى ليست على طرفي نقيض مع هذه اللحظة . ويجب أن لا ننسى أن الدين التوحيدي ليس البوذية أو ديانات الشرق الأقصى . .

- ٧ -

أخيراً ، أتقدم بأربعة اقتراحات للتفكير والنقاش .

١ ـ مبدئياً ، فصل الثقافة عن السياسة وعن هذا الذي يسميه الكثيرون الايديولوجية . خلق تواصل ثقافي واع بين أقطار العرب ، بين المشرق والمغرب ، مثلاً ، نقل الفولكلور الشعبي المغربي إلى المشرق ، السعي إلى خلق أغنية للطفل العربي ، الخ يجب انماء الهوية الثقافية العربية عن هذا الطريق المتنوع . يجب عدم التسليم أو الركون لوحدة اللغة أو لوحدة الدين ، كعوامل ضامنة لوحدة الأمة ثقافياً . انها بذاتها ولحالها ، لا تضمن شيئاً .

يجب الانتهاء من خلط الثقافة واللغة ، لصالح الاثنين ، يجب الانتهاء من خلط الثقافة والدين ، لصالح الاثنين .

في الذهن العربي الحالي ، العلاقات والروابط والتداخل وما شابه هي باب للخلط الذي قد يسمي نفسه علاقة جدلية وتفاعلاً ديالكتياً . أريد أن أقول إذاً ان الجدل هو طريقة عمل واعية بالمفاهيم ، والمفاهيم تعني أولاً : الفصل ، الحد ، من لا يريد فصلاً لا يريد معرفة ، يبقى دون المعرفة ، يدور إلى ما لا نهاية في بديهيات مكرورة ، أو بالاصح في أشباه بديهيات باطلة إلى حد لا بأس به .

الثقافة ليست تابعة ملحقة باللغة . والثقافة كما هي ، بتنوعها وثروتها واختلافها ، بين الخليج والمحيط ، يمكن ويجب أن تكون عامل توحيد كبيراً .

٢ ـ ايجاد هيئة عربية مستقلة وذات كيان على نطاق مجموع الأمة تتولى بعث ما يجب بعثه من التراث الفكري ، واصدار ذلك في سلاسل من كتب صغيرة تحوي مختارات أو مقتطفات مع مقدمة وشروح . هذا يتطلب برنامجاً .

ليس من الممكن ولا من الضروري أو المفيد ان يقرأ عشرات الألوف من الناس كذا مجلداً من تاريخ ابن الأثير مثلاً ، لكن من الممكن والضروري أن يقرأ عشرات أو مئات الألوف من الناس كتاب مختارات من هذا التاريخ ، وهكذا الأمر بالنسبة لعشرات ومئات آخرين .

ولا يسعني الا أن أبدي احترامي وتقديري لكل المجهودات الخاصة أو الرسمية التي بذلت في هذا الاتجاه . لكن الأمر يستحق التطوير . يجب أن يتكون محور فكري ثقافي للأمة العربية . هذا المحور لا ينفي التناقضات والاختلافات لكنه أيضاً محور مسائل . والتناقضات يمكن أن تخدمه .

بوجه عام ، يجب ملء الفراغ الروحي والفكري حتى لا يملأه غزو ثقافي لا نريده ، وحتى لا تملأه أشباح ، أشباح الماضي أو هواماته .

٣ ـ ايجاد هيئة عربية « للسيطرة » على عملية الترجمة ، اخراج هذه العملية من التلقائية والعشوائية والتجارة

والسياسات الآنية . أقول « سيطرة » بمعنى اشراف ، لا أقصد إذاً اجراءات منع حكومية . ان اجراءات المنع يمكن أن تؤدي إلى عكس المطلوب . الافكار لا تعامل بالمنع . المنع ليس مجابهة . « السيطرة » التي قصدت خطة توجيه .

العالم ، خارج الوطن العربي ، ليس محصوراً في الغرب . هناك الاتحاد السوفياتي ، الصين ، الهند ، آسيا . لكن هنا أيضاً يجب أن تضطلع بالقضية ، قضية النقل ، هيئة فكرية مسؤولة . ليس الآخرون هم الذين يلامون اذا لم يكن ما يأتينا من عندهم أفضل انتاجهم الفكري أو ما نحتاج اليه فعلاً . المطلوب هو الذهاب والأخذ ، بدلاً من الاستقبال والتلقي . الأخذ مسؤولية تاريخية .

٤ ـ السعي الى حماية وانماء الهوية الثقافية لملايين المهاجرين العرب ، خارج الوطن . هذا يفترض ايجاد مؤسسات في تلك البلدان لتعليم اللغة العربية ، والاستفادة من مناخ الديموقراطية والاعتراف بالتعددية الثقافية لاحياء الثقافة العربية بين المهاجرين العرب . ومآله انشاء هوية ثقافية قوميةعربية للعرب المجتمعين في فرنسا على سبيل المثال ، أو السعي إلى جمع هؤلاء العرب الآتين من أقطار عربية مختلفة في بوتقة ثقافية واحدة في فرنسا وفي غيرها من البلدان .

هذه ليست عملية سياسية بالمعنى المألوف ، لكن أبعادها السياسية بمعنى آخر واضحة على ما أعتقد .

هذا لا يعني السعي إلى فصل العرب المستوطنين أو المقيمين عن البلدان والمجتمعات التي هم فيها . بل الأمر بالعكس . في الوقت الحاضر يوجد في فرنسا بعض العمال وغير العمال العرب الذين هم في عزلة وغربة عن المجتمع المحيط بهم وهم في الوقت نفسه بلا لغة عربية ولا ثقافة عربية .

ليس اذاً المطلوب ، حسب تصوري ، شن حرب هويات ثقافية ، بل الاستفادة من التعددية المعترف بها في بلدان الغرب لصون أو انشاء أو انماء هوية ثقافية عربية للعرب ، مما يساعد على تلاؤمهم وحياتهم حيث اختاروا أو اضطروا أن يعيشوا ويعملوا . من المؤسف والمؤلم أن يكون لليهود هذا الحضور وهذا النفوذ المعلومان في فرنسا ، وان لا يكون ثمة شيء يشبه ذلك للعرب في فرنسا ، رغم عددهم ورغم كل المزايا العربية الموضوعية التي يجب أن تحول من الموضوعية المجردة ومن الشيئية الميتة إلى الواقعية الفعلية .

لكن هذه القضية تعيدني إلى القاعدة العامة : في الموضوعية المجردة ، العرب كم كبير ، بشراً ومساحة ونفطاً ومالاً وربما اسلحة أيضاً . في الواقعية الفعلية ، الأمر غير ذلك . الواقعية الفعلية ليست « مادة » بل هي معقولية كونية . ان نضع أنفسنا خارجها ، وفي الربع الأخير من القرن العشرين ، هذا هلاكنا .

دار الآداب تقدم

سلاسل

دار الآداب للصغار

- غنّوا يا أطفال (١٠ اجزاء) للاستاذ سليمان العيسى
- شعراؤنا يقدّمون أنفسهم للاطفال (١٠ اجزاء) » » »
- سلسلة « صبّاح » للاستاذ زكريا تامر
- قصص مختلفة » » »
- تراثنا بعيون جديدة لمجموعة من الادباء
- اجمل قصص الاطفال في العالم

دار الآداب شارع المزرعة ، بناية مركز الكتاب ، ص.ب ٤١٢٣ تلفون ٨٠٣٧٧٨ ـ ٣٠٢٩٨٦